

الخطابة في المغرب القديم ودورها في بناء الذاكرة التاريخية

Oratory in the ancient Maghreb and its contribution to the formation of historical memory

دعاس فارس

جامعة سطيف 02- الجزائر

f.daas@univ-setif2.dz

الملخص:

تعتبر الأدبيات الخطابية من أهم أنواع النصوص الكلاسيكية القديمة بنوعها الإعرافيه واللاتيبه التي يستحق البحث وتستدعي التمحيص، لذا تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الوظيفة التاريخية التي اضطلعت بها هذه الأدبيات في تدوين الأحداث السياسية والعسكرية وتوثيق مختلف الجوانب الدينية والثقافية في بلاد المغرب القديم.

تتمحور الإشكالية الرئيسية التي تعالجها هذه الورقة حول العلاقة بين الخطابة والتاريخ وحدود كل منهما، وكيف نستفيد من الأدبيات الخطابية في إعادة تركيب الذاكرة التاريخية، وذلك من خلال توظيف مقاربة منهجية تركز إلى آليات المنهج الوصفي من أجل تحديد البنية المفاهيمية لفن الخطابة ورصد ملامحها، وتشخيص واقع الخطباء في بلاد المغرب القديم، بالإضافة إلى الاستناد إلى المنهج السردى لتتبع التطور التاريخي والمرحلي لهذا الفن ومختلف التغيرات التي طرأت عليها، مقارنة بالتحويلات السياسية والثقافية التي شهدتها المنطقة، كما اعتمدنا على المنهج التحليلي بصفة أكبر من أجل الكشف على أنواع الخطابة وتحليل مضامينها وبنيتها اللغوية والحجاجية واستخراج دلالاتها التاريخية وتفكيك مختلف الأفكار التي تضمها.

تتوزع الدراسة على مجموعة من النقاط التي تغطي الموضوع من كل جوانبه وتصب كلها في محاولة الإجابة على الإشكالية الرئيسية والأسئلة الفرعية لهذه الدراسة، حيث تناولنا في البداية الإطار اللغوي والمفاهيمي للخطابة انطلاقاً من رؤى أبرز المنظرين لهذا الفن في العالم القديم من أمثال أرسطوطاليس وشيشرون، ثم تطرقنا إلى الجذور التاريخية والتطور المرحلي للخطابة في بلاد المغرب القديم. كما سلطنا الضوء على أصناف الخطب محاولين في ذلك تحليل مضامينها والأفكار التي تحتويها، بالإضافة إلى معالجتنا لعنصر مهم يتعلق بكيفية انتقال فن الخطابة من الشفاهية إلى التدوين. وبعد ذلك عرجنا للتذكير بالآليات المنهجية التي يجب أن يستعين بها الباحث من أجل التعامل مع هذا النوع من الأدبيات.

خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج مفادها أن الخطابة والخطباء في المغرب القديم من المواضيع المهمة التي لم تحضى بالاهتمام اللازم مقارنة بقيمتها التاريخية، خاصة وأن بلاد المغرب قدمت لنا ثلة من الخطباء الملمهين من أمثال أبوليوس والقديس أوغسطينوس، الذين بلغ صيت أدبهم ربوع العالم بنفس القدر من التأثير والتميز، كما اتضح أن الأدبيات الخطابية تتميز بخصوصيات فريدة تجعلها مختلفة عن باقي المصادر التاريخية، وبإمكان الباحثين في مجال التاريخ الاستفادة منها لتغطية العديد من الفجوات التاريخية، خصوصاً وأن هذه الأدبيات فيها العديد من الأصناف الغنية بالمعلومات ذات الطابع السياسي العسكري والأفكار ذات الطابع الثقافي والديني. كما وضحت الدراسة كيف انتقل هذا الفن من الممارسة الشفاهية في مختلف الفضاءات إلى عمليات التوثيق والتدوين على اختلاف أنواعها،

الكلمات المفتاحية: الخطابة، الخطباء، المغرب القديم، الذاكرة التاريخية.

The abstract:

Rhetorical literature is among the most significant types of classical literary texts (Greek and Latin) that demands careful study and close examination. Therefore, this study aims to shed light on the historiographical function of such literature in documenting political and military events, as well as preserving religious and cultural aspects of ancient Maghreb.

The central question this paper revolves around is the relationship between oratory and history, their respective boundaries, and how Rhetorical literature can be utilized to reconstruct historical memory. To achieve this, the study employs a methodological framework combining a descriptive approach to map the

characteristics of oratory and orators in the ancient Maghreb, a narrative approach to trace the historical evolution of this art form and its transformations, and an analytical approach to classify types of oratory, analyze their content, and extract their historical significance.

The study is structured around key themes addressing its primary research question. It first outlines the conceptual framework of oratory, drawing on the perspectives of prominent ancient theorists. Next, it touches on the historical roots and the gradual development of oratory in ancient Maghreb, followed by highlighting speech genres, an analysis of their content and underlying ideas. The paper then examines the methodological tools researchers should employ when engaging with such texts.

The study concludes that oratory and orators in ancient Maghreb remain understudied relative to their historical value, despite the region's production of inspiring orators such as Apuleius and Saint Augustine, whose works became renowned throughout the ancient and early medieval world. Rhetorical literature possesses unique characteristics that distinguish it from other historical sources, offering researchers of these field opportunities to fill historical gaps, particularly due to its inclusion of rich political-military narratives and cultural and religious ideas. The study also clarifies how this art moved from oral practice in various spaces to documentation and recording processes of various types.

Keywords: Oratory; Orators; Ancient Maghreb; Historical Memory.

المؤلف المرسل: دعاس فارس، الإيميل: f.daas@univ-setif2.dz

مقدمة

يعتبر الأدب الكلاسيكي القديم ثروة ثقافية وحضارية فريدة من نوعها، سواء من حيث الكم أو من حيث تنوع قوالبه ومضامينه، والمتعمق في هذا الأدب يجد نفسه بين ملاحم شعرية خالدة، وبين روايات أدبية رائدة، ويجد نفسه يتعامل مع أقلام الساسة والعسكر ومع رجال الدين والكنيسة، غير أن الخطباء وأصحاب المنابر كانوا أكثر هذه الفئات تأثيراً في الجماهير السابقة واللاحقة في بلاد المغرب وفي غيرها، لما لفته خطبهم من شهرة فاقت الحدود، ومن جهة أخرى يعد أدب الخطابة واحد من أهم وسائل كتابة التاريخ ونقله للأجيال اللاحقة. وهو موضوع هذه الورقة البحثية، التي تكمن أهميتها كونها تسعى إلى تسليط الضوء على مسألة بحثية مهمة تبدو مغيبة في أغلب الدراسات السابقة، هذه الأخيرة ركزت على موضوع الخطابة في بلاد الإغريق وروما في حين لم يحظى الموضوع بنفس القدر من الاهتمام في بلاد المغرب القديم، رغم ما يمتلكه هذا الفضاء من زخم ثقافي وفكري.

لقد حظي موضوع الخطابة باهتمام عدد من المؤرخين الذين درسوه من جوانب مختلفة، غير أن الأبحاث التي أنجزت لحد الآن لم تكن على قدر كافي من التوازن الجغرافي أو التكامل المعرفي. فقد ركزت أغلب الدراسات على تاريخ الخطابة وتطورها في روما وبلاد الإغريق، وفي هذا الصدد يمكن أن نذكر على سبيل الحصر الكتاب الذي ألفه الباحث الأمريكي ريتشارد ليو إينوس (R.L. Enos)، حول ثورة الخطابة الرومانية وتأثيرها بنظيرتها الإغريقية، وفي المقابل حسب علمنا لا توجد دراسات غطت موضوع الخطابة والخطباء في المغرب القديم وعلاقته بكتابة التاريخ بمختلف أبعاده ومكوناته، بل اقتصرت المساهمات السابقة على معالجة نقاط جزئية، على شاكلة عمل الباحث الفرنسي فيكتور بيتولاو (V. Bétolaud)، الذي ترجم الأعمال الخطابية لأبوليوس وقام بتحليلها ودراستها، وأخرجها في كتاب جاء تحت عنوان: الأعمال الكاملة لأبوليوس، في حين ركز باحثون آخرون على شخصيات خطابية دون الأخرى، مثل الباحث إريك أدلر (E. Adler) الذي قام بتحليل عميق لخطب القائد القرطاجي حنبعل في كتابه الموسوم: تمجيد البرابرة: خطب الأعداء في التأريخ الروماني.

تضل العلاقة بين الأدب والتاريخ علاقة متداخلة خاصة في البدايات، حيث أن بداية التاريخ كانت في شكل قوالب أدبية، وارتبطت البذور الأولى للأدب بالمضامين التاريخية، وهذا ما يتطابق تماما في العلاقة بين الأدب الذي كتبه الخطباء في المغرب القديم وبين تاريخ هذا المجال الجغرافي. من هنا تتبلور إشكالية الموضوع الذي تبحث في حدود كل منهما الخطابة والتاريخ، وتركز بصفة محورية على أهمية توظيف الأدبيات الخطابية كمادة لكتابة وتأويل وفهم الوقائع التاريخية في المغرب القديم خلال الفترة القديمة. وفي هذا السياق يمكن أن نطرح مجموعة من الأسئلة الفرعية التي تصب في الإطار العام للإشكالية: كيف تشكل مفهوم الخطابة في العصور الأدبية القديمة؟ ما هي المضامين التاريخية التي تحملها الأدبيات الخطابية في طياتها؟ كيف يمكن فهم السيرة التاريخية لفن الخطابة من خلال تتبع تطورها المرحلي وتأثرها بالتحويلات السياسية والثقافية؟ كيف انتقلت الخطابة من الشفاهية إلى التدوين؟ ما الآليات المنهجية للتعامل مع الأدبيات الخطابية الكلاسيكية القديمة؟

بحكم طبيعة الدراسة ارتأينا الاعتماد على أكثر من منهج لمعالجة الموضوع، حيث وظفنا المنهج الوصفي بغرض الوقوف على المفاهيم الخاصة بالخطابة ورصد واقع هذا الفن والفاعلين فيه في بلاد المغرب القديم، كما اعتمدنا على المنهج السردى من أجل تتبع الجذور التاريخية والتطور المرحلي للخطابة وعلاقتها بالتحويلات السياسية والثقافية في المنطقة، أما المنهج التحليلي فهو الأكثر توظيفا في تناول هذا الموضوع، لأن الدراسة من بدايتها إلى نهايتها تتطلب تشريحا للظاهرة وعلاقتها بالسياقات الثقافية والظرفية التاريخية، وتفكيكا للمضامين التي تحتويها الأدبيات الخطابية.

استعنا في هذه الورقة البحثية بعدد من المصادر والنصوص الأدبية القديمة، بداية بالمؤلف الروماني تيتيوس ليفيوس (Titus Livius) الذي خصصه لتاريخ روما، والمؤلف الموسوم بالتواريخ للإغريقي بوليبيوس (Polybius)، اللذان نقلنا لنا مجموعة من شذرات الخطب التي تنسب لشخصيات سياسية وعسكرية قرطاجية، كما شكل مؤلف حرب يوغرطة لصاحبه ساليستيوس (Sallustius) مصدرا مهما، لاحتوائه على مجموعة الخطب التي تنسب للملك نوميديين، أما المؤلفات الخطابية التي كتبها الخطيب أبوليوس (Apuleius) بنفسه فقد أمدتنا بتصورات ورؤى حقيقية عن بنية الخطبة خلال الفترة الرومانية، كما اعتمدنا على المؤلف الخطابي لأوغسطينوس (Augustinus) الموسوم بـ المزامير كنموذج لتغطية الفترة المسيحية، أما من جانب التأصيل النظري والمنهجي فقد استعنا بكتاب "تربية الخطيب" للروماني كوينتيليان (Quintilian)

1. الإطار المفاهيمي للخطابة

تشتق كلمة (Oratoria) التي تستخدم في اللغة اللاتينية للدلالة على الخطابة من الجذر اللغوي (Orare) والذي يرتبط بالفعل (يتكلم أو يتحدث)، والخطيب يسمى (Orator)، والخطبة يصطلح عليها بـ (Oratio): وعادة ما تستخدم كلمة (Oratoria) مع كلمة (Ars) التي تعني الفن، أي فن الخطابة، ويطلق في اللغة الفرنسية مصطلح (La Rhétorique أو L'art Oratoire) للدلالة على هذا الفن، أما في اللغة الإنجليزية فيصطلح عليها بكلمة (Rhetoric) أو (Oratory) أما (Orator) فتعني في اللغة نفسها الخطيب (Charlton, 1879: s.v Oratorai)، أما في الإغريقية فتستعمل كلمة الريطوريقا (ῥητορικὴ) (rhētorikē) للدلالة على هذا الحقل المعرفي، وهي كلمة

تتكون من شقين، (الريطور) والمقصود بها الخطيب أو المتحدث البليغ، و (إيقا) ومعناها الفن، مما يجعل المعنى الحرفي للمصطلح "فن الخطابة" (Charlton, 1879: s.v. ῥητορική).

يعتبر الفيلسوف الإغريقي أرسطوطاليس (Aristoteles) هو أول من نظّر للخطابة في العصور القديمة بعد السفسطائيين، وقد حدد مفهومها الاصطلاحي في كتابه الموسوم بـ: الريطوريقا، الذي ألفه في منتصف القرن الرابع ق م باعتبارها: «مهارة للتحليل العقلي والقدرة على إقناع الجماهير في شتى الظروف ومختلف أنواع المنابر» (أرسطوطاليس، الخطابة: 84)، وميّز أنواع الإقناع بين المنطقي الذي أشار إليه بمصطلح *لغوس* (Logos)، والإقناع العاطفي *باثوس* (Pathos)، والإقناع الأخلاقي *إيثوس* (Ethos)، وتطرق أيضا إلى أنواع الخطابة وأهدافها ودور الأخلاق والعاطفة فيها، كما أشار إلى الصفات الضرورية التي يجب أن يتحلى بها الخطيب، وبين طرائق الإقناع ووسائل التأثير في الجماهير، وعرج إلى بنية الخطبة وأساليب تنظيمها وإلقاءها (أرسطوطاليس، الخطابة: 319-234)، وقد شكّل هذا الكتاب بذلك اللبنة الأولى في بناء علم الخطابة بوصفها فرعاً معرفياً متميّزاً.

تناول الخطيب الروماني شيشرون (Cicero) مفهوم الخطابة في كتابه الموسوم بـ: عن الخطابة (De orator)، وذلك في سياق حوار تضمن سؤالاً فلسفياً: ما هي الخطابة؟ وقد كانت الإجابة تعريفاً للخطابة بوصفها: «فن الكلام ومهارة التعبير عن الأفكار والآراء بأفضل أسلوب ممكن، بهدف الوصول إلى عقول الجماهير والتأثير عليها، وفق ما تنص عليه القوانين وتلزمه الأخلاق والمصلحة العامة للبلاد والعباد» (Cicero, De Oratore: I, 2). أما كوينتيليان فقد ربط الخطابة ربطاً مباشراً بالأخلاق، فلا معنى حسبه للكلام البليغ دون أن يكون محتواه مقنن بالفضيلة والأخلاق، وأكد أن الخطيب الحقيقي هو ذلك الرجل الفاضل الذي يسخر سحر كلامه لخدمة وطنه وقومه (Quintilian, Oratoria: I, 3.5).

2. الجذور التاريخية والتطور المرحلي لفن الخطابة في بلاد المغرب القديم

يعد البحث في الجذور التاريخية والتطور المرحلي لفن الخطابة في بلاد المغرب القديم تحدياً منهجياً صعباً نظراً لطبيعة وخصوصية المصادر التي أشارت إلى هذا الفن، خاصة وأن بعض النصوص أشارت فقط إلى فن الخطابة دون أن تقدم لنا خطباً مكتوبة بشكل كامل، وفي مقابل ذلك وفرت لنا نصوص أخرى قطعاً خطابية متكاملة.

1.2 الخطابة خلال الفترة البونية

ظهر هذا الفن خلال الفترة البونية، حيث أشار الكتاب الروماني ليفيوس إلى أن حنبعل قدم خطاباً في مجلس الشيوخ القرطاجي، قبل الحرب البونية الثانية (218 ق م – 201 ق م) وحذّر كثيراً من خطر التوسع الروماني ولقت خطبته جملة من الرفض من قبل بعض الأعضاء من أمثال حانون (Tit Live, Histoire : XXI, 10-11)، ونقل بوليبيوس جانباً من الخطابات الحادة التي دارت في مجلس الشيوخ القرطاجي حول قضية إرسال الإمدادات إلى حنبعل في إيطاليا في الحرب البونية الثانية، حيث انقسم المجلس بين مؤيد ومعارض (Polybe, Histoire: IX, 22-26)، كما نقل أبيانوس مشاهد من الخطابات التي كانت داخل المجلس في خضم الحصار التي طوق بها الرومان مدينة قرطاجية في الحرب البونية الثالثة (146 ق م)، حيث أشار إلى خطاب بعض الشخصيات من أمثال هيميلكو (Himilco) الذي دعا إلى الاستبسال للدفاع عن المدينة حتى النهاية، منادياً بهذه

العبارة: «ليس لدينا أي خيار الآن، سوى الاستبسال أو الموت بشرف، وإلا سيستعبد أطفالنا وتدمر معابدنا» (Appian, Punica: 92)

أشارت النصوص الأدبية اللاتينية التي نقلت لنا أحداث الحروب البونية إلى أن القائد القرطاجي حنبعل كان خطيبا مميّزا، حيث دأب على تحفيز جنوده من أجل التفاني في القتال في بداية كل معركة، حيث يصور لنا الكاتب الروماني تيتيوس ليفيوس حنبعل في معركة كنائي الشهيرة (Cannae) 216 ق م وهو يخطب في جنوده ويحرضهم من أجل الانتقام من روما التي هزمتهم في معارك سابقة، ويغريهم من جهة أخرى بالغنائم التي سيتحصلون عليها في حالة النصر، وهذه بعض الفواصل من خطبته:

«..... ليست المرة الأولى التي سنهزم فيها الرومان، فقد هزمناهم مرارا وتكرارا، وقد هربوا منكم في عديد المرات، لا تنسوا معارك تريبيا وتراسيمي، ولقد جاءوا الآن لرد الاعتبار لهم بعد هزائمهم النكراء..... لديهم أسلحة تشابه أسلحتكم، لكن ليس لهم قلوب كقلوبكم، لا تنسوا أنكم أبناء قرطاج وملوك البحر، اليوم ستنالون نصرا يكتبه التاريخ» (Tit Live, Histoire: XXII, 45-46)

وفي معركة زاما (Zama) 202 ق م الحاسمة نقل لنا بوليبيوس شذرات من خطبة حنبعل وهو يحاول أن ينقذ ما يمكن إنقاذه خاصة بعد تفوق الرمان عليه في العدة والعتاد، وهذه بعض الشذرات من خطبته كما نقلها بوليبيوس:

«أيها الأبطال، هذه المعركة حاسمة ومصيرية بالنسبة لكم وبالنسبة لقرطاج، فإما النصر والتخلص من جور روما وإما الهزيمة التي ستجعلكم عبيدا لأعدائكم طوال حياتكم،..... لا تنتظروا الشفقة من الرومان فإنهم عديمو الرحمة، قاتلوا من أجل قرطاج ومن أجل أبنائكم وشرفكم ولتحيا قرطاج العظيمة» (Polybe, Histoire: XV, 11-12).

على العموم لا توجد نصوص أدبية تكلمت باستفاضة على أدب المجالس في قرطاج، إلا أنه توجد إشارات لكتب مفقودة تناولت هذا الأدب بصفة خاصة والخطابة على وجه التخصيص، حيث أشار الخطيب الإغريقي أثينوس (Athenaeus) في كتابه مآدبة السفسطائيين إلى كتاب مفقود يحمل عنوان: "دستور قرطاج" لمؤلفه الإغريقي هيباقوراس (Hippagoras)، هذا الأخير خصص لأدب المجالس وفن الخطابة في الهيئات الدستورية القرطاجية، لكن للأسف ضاع هذا الكتاب وضاعت معارفه التي كان يمكن أن نستفيد منها كثيرا في هذا المقال (بورونية وهاهر، 1999: 167).

2.2 الخطابة خلال فترة الممالك النوميدية

اتضح لنا من خلال تصفح فقرات كتاب حرب يوغرطة للسياسي والكاتب اللاتيني ساليستيوس أنه يحمل في طياته خطبا كاملة منسوبة لشخصيات نوميدية قد أُلقيت في سياقات تاريخية مختلفة، فقد نقل لنا الخطبة التي ألقها الملك النوميدي مكيبسا (Micipsa) أمام يوغرطة وابنيه أذربعل وهيمصال وجمع كبيرا من أصدقائه وذويه، وجاءت هذه الخطبة في شكل وصية تركها الملك لخلفه لما أحس بدنو أجله، وجاء في مضمونها ثناء كبير وإشادة بشجاعة يوغرطة، وأيضا إعلان التبني الرسمي ليوغرطة من قبل مكيبسا، وكذلك قرار تقسيم المملكة بين الأخوة الثلاثة. (Salluste, Jugurtha: IX-X)

كما نقل ساليستيوس الخطبة الطويلة التي ألقاها أذربعل في مجلس الشيوخ الروماني لما قتل يوغرطة أخاه هيمصال واستوى على مملكته، وأبدى نيته في الاستلاء على كل المملكة التي تركها مكيبسا، وجاء في مضمون

الخطبة تصريحاً مباشراً بحرص أدربعل على الولاء التام للرومان والتأكيد على ضرورة استمرارية علاقات التحالف والصدقة بينهما، كما تقدم بشكوى لمجلس الشيوخ الروماني ضد الثائر يوغرطة، الذي تمرد حسبه على المعاهدات والوصايا الذي أشرفت عليها روما أثناء تقسيم المملكة بين الإخوة، كما تتضمن الخطبة نداء استغاثة من طرف أدربعل وطلب النجدة والتدخل من قبل السلطة الرومانية، بعد أن صورها على أنها الوحيدة القادرة على وقف بطش يوغرطة وتمرده (Salluste, Jugurtha: XIV). كما نقل المصدر نفسه خطبة أخرى لأدربعل، لكن هذه المرة لم يلقيها هو بنفسه في مجلس الشيوخ وإنما ألقيت بالنيابة عنه أمام أعضاء المجلس، هذا بعد أن حاصره يوغرطة في مدينة سيرتا وكاد يقضي عليه، فكرر نداء الاستغاثة وطلب النجدة من الرومان، وكرر عبارات الولاء والتحالف، وشدد لهجته في وصف همجية يوغرطة وبتطشه (Salluste, Jugurtha: XXII).

3.2 الخطابة خلال فترة الاحتلال الروماني

لا يمكننا أن نتكلم عن فن الخطابة في بلاد المغرب بوصفه علماً متكامل الأركان وذا جودة بلاغية عالية إلا ابتداء من فترة الاحتلال الروماني للمنطقة، حيث بلغ هذا الفن مستوى عال من النضج لم نشهده سابقاً، خاصة مع ظهور نخبة محلية من الخطباء المتأثرين بالثقافتين الإغريقية واللاتينية.

يعد أبوليوس المادوري الذي عاش في القرن الثاني ميلادي من بين أبرز رموز النخبة المحلية، وأحد أشهر الخطباء في المغرب القديم، حيث ساهمت مجموعة من الظروف في ميلاد هذه الشخصية الفذة، خاصة وأنه ولد في عائلة ميسورة سمحت له بمتابعته دراسته في أرقى الحواضر العلمية في العالم القديم، حيث درس مرحلته الابتدائية في مسقط رأسه مادور، ودرس اللغة والنحو والبلاغة في قرطاجة، ودرس الخطابة والفلسفة والشعر في أثينا، ومكث في روما سنتين درّس فيها الخطابة واشتغل بالمحاماة، وانتقل إلى أويا والإسكندرية العامرة، كما أن إتقانه للغتين الإغريقية واللاتينية جعله ينهل من كل الآداب الراقية في تلك الفترة ويتأثر بكبار المفكرين والفلاسفة من أمثال أفلاطون وسقراط وأفلاطون وشيشرون (Bétolaud, 1901: 6-7).

ترك أبوليوس المادوري إرثاً غنياً من المؤلفات التي تعبر عن موسوعيته وتعكس إبداعه وتنوع معارفه، إلا أننا سنركز في هذه الورقة البحثية على مؤلفاته الخطابية تحديداً، وذلك لهدفين أساسيين: الأول هو معرفة بنية الخطبة في تلك الفترة، وتحليل مضامينها وأساليبها، والثاني هو استكشاف الجانب الإبداعي في شخصية أبوليوس كخطيب، خاصة وأنه بلغ شهرة واسعة في هذا المجال في بلاد المغرب القديم وخارجها، حتى أن الجماهير الشغوفة كانت تتوافد عليه بكثرة لسماع خطبه، وقد أشاد أبوليوس كثيراً بنفسه كونه خطيباً مفوهاً، وبلاغته قد تؤثر على كل من يسمعه أو يقرأ له.

أول النصوص الخطابية لأبوليوس المادوري هو المؤلف الموسوم بـ: *أبولوجيا* (Apologia) ومعناه في اللغة اللاتينية الدفاع، وهو عبارة عن مرافعة ألقاها أبوليوس في محكمة صبراتة سنة 159/158 م دفاعاً عن نفسه من التهم الموجهة إليه من طرف أفراد عائلة زوجته، حيث اتهم بسحر بودنتيلا من أجل الزواج بها طمعاً في ثروتها، يحتوي النص على 103 فقرة، أظهر فيها أبوليوس مهارته الخطابية وبلاغة من أجل الرد على التهم الموجهة له، حيث أبدى براعة في التلاعب بالألفاظ والحجج والسخرية من خصومه، وكشف في ثنايا الخطاب عن قوة حجته في القانون والمحاماة وواسع اطلاعه في فنون وتجارب السابقين. (Bétolaud, 1901: 369)

أما النص الخطابي الثاني فهو المؤلف الموسوم بـ *فلوريديا* (Florida) ومعناها في اللغة اللاتينية المزهرة أو المليئة بالزهور، كناية عن مجموعة الخطب المستنيرة التي يضمها الكتاب، وقد رجح الباحثون أن أبوليوس قد جمع هذه الخطب ودونها في الفترة ما بين 166 م و 169 م، ويضم المؤلف 26 خطبة أو بالأحرى مقاطع وشذرات منها كان قد ألفها أبوليوس أثناء إقامته في قرطاج، وقد أظهر فيها صفة الخطيب الواثق من نفسه في إظهار مستمعيه، وكان يتنوع بين المواضيع ويستشهد بشتى القصص والطرائف من بلاد الإغريق والهند والرومان، ويستجلب أقوال الفلاسفة والمفكرين والقادة العظام ليؤكد على واسع اطلاعه وقوة بيانه وتميزه عن أقرانه من الخطباء. (أبوليوس، الأزهير: 12)

اتخذ فن الخطابة في بلاد المغرب منحى مغايرا مع انتشار المسيحية بداية من القرن الثالث ميلادي، إذ أسهم ظهور هذا الفكر الديني في توجيه مضامين الخطابة وأساليبها نحو مسائل أخلاقية وعقائدية، وبرز في هذا السياق التاريخي عدد من المفكرين المسيحيين الأفارقة الذين اتخذوا من منابر الكنائس والساحات العامة فضاءات لنشر المواعظ والقيم، مسخرين خطاباتهم للدعوة إلى هذا الدين الجديد والتنظير لمبادئه وقيمه، ومن جهة أخرى حمايته والدفاع على معتنقيه من الاضطهاد ومحاربة فكر الوثنيين واليهود والهرطقة، ومن أشهر هؤلاء المفكرين نذكر: تروتيانوس (Tertullianus) 150م-220م، كبريانوس (Cyprianus) 210 م-258م، أوغسطينوس 354-430م. (دانيال، 1999: 283)

لا تتيح لنا حدود هذه الدراسة إمكانية التطرق إلى جميع المفكرين المسيحيين الأفارقة وعلاقتهم بالخطابة، خاصة وأنهم ينتمون لنفس التبار الأدبي وتتقاطع توجهاتهم العقيدية وأساليبهم الأدبية في الكثير من النقاط، لذا ارتأينا أن ننتقي نموذجا واحدا يمثل هذه الفئة الدينية تمثيلا دال، ولقد وقع الاختيار على القديس أوغسطينوس، نظرا لما حضي به هذا المفكر من شهرة بالغة فاقت حدود إفريقيا القديمة وفاقت حدود عصره، ومكانة مرموقة في الذاكرة الأدبية المسيحية، كما أن أسلوب ومضامين خطبه تعكس بشكل جلي التوجهات الأدبية الخطابية في عصره، مما يجعله أفضل نموذج لفهم سياقات المرحلة من الناحية التاريخية ومن الناحية الأدبية.

بدأت رحلة القديس أوغسطينوس مع فن الخطابة من مدينة مادوروش، وذلك بداية من السنة الأولى من المرحلة الثانية من مساره التعليمي، حيث تلقى أبجديات هذا الفن من خلال تعلم القواعد النحوية وضوابط التعبير البلاغي، وتدرّب على الإلقاء أمام العامة من خلال حفظ النصوص الشعرية وإعادة استظهارها بطريقة خطابية دالة، ولقد أثبت هذا الأسلوب من التعليم فعالية كبيرة على التلاميذ، إذ كان يعزز حماسهم في إتقان هذا الفن والتفوق في تحصيله، أما أوغسطينوس فقد أبدى تفوقا واضحا على زملائه في الصف وأظهر براعة في الإلقاء والتعبير، الأمر الذي أكسبه مجموع من الجماهير والمستمعين منذ صغره (أوغسطينوس، الإعترافات: 24).

تابع أوغسطينوس دراساته العليا في الخطابة بمدينة قرطاج، حيث تبهر في ثنايا هذا الفن وأتقن تقنياته، واطّلع على عدد كبير من الكتب والنصوص الإغريقية واللاتينية المتخصصة التي ساعدت في صقل موهبته، ودعمته قدرته على التحصيل والتميز في تخصصه، ومن بين الشخصيات التي تأثر بها القديس، الخطيب الروماني شيشرون، وقد عبر عن ذلك في كتابه الاعترافات بقوله: «ولما بلغت عمر التاسع عشر وأنا في

صف البلاغة اطلعت على مؤلف هوثنيوس للخطيب اللاتيني شيشرون، فكان له أثر بالغ في إثارة اهتمامي بالفلسفة وجعلني أكرس جهودي لدراستها» (أوغسطينوس، الإعرافات: 44).

لم يكن تفوق القديس أوغسطينوس في فن الخطابة مجرد تميز دراسي عابر، بل أهله فيما بعد ليصبح أستاذا ومعلما للخطابة في مدينة قرطاجة، حيث كان يقصده مجموعة من الطلبة والتلاميذ ليأخذوا عنه مبادئ هذا الفن وأساسياته مقابل أجرة معينة، وقد نال شهرة معتبرة في المدينة، وقد أشار إلى الموضوع في اعترافاته إلى أن تفانيه في تدريس فن الخطابة لطلابه دون غش وتهاون كان بداية لاستقامته وبعده عن الشهوات. (أوغسطينوس، الإعرافات: 58).

بعد أن اعتنق القديس أوغسطينوس المسيحية وتدرج في السلم الكهنوتي المسيحي حتى أصبح أسقفا في كنيسة هيبورجيوس، استغل مهارته في الخطابة للدعوة إلى المسيحية ومبادئها، حيث كان يقدم الخطب والمواضع في المناسبات الدينية مثل عيد العذراء، وعيد الرسل والقديسين والشهداء، بالإضافة إلى العديد من الخطب والمواضع في أيام السنة العادية حتى أنه لا يكاد يخلو يومه من خطبة أو موعظة، الأمر الذي جعل الجميع يصنف أوغسطينوس في المقام الأول من أباء الكنيسة بما يتمتع به من عقل راجح وقدرة قل نظيرها في البلاغة والإقناع (أوغسطينوس، عظات: 5).

ترك القديس أوغسطينوس إرثا كبيرا من النصوص والمؤلفات الدينية اللاهوتية والخطابية والفلسفية، وما يهمننا في هذه الدراسة هي المؤلفات الخطابية أي ما دون من خطب القديس ومواعظه التي ألقاها على جمهوره سواء في قرطاجة أو مدينة هيبورجيوس مقرر كنيسة، وفي هذا الصدد يمكن أن نذكر مؤلفه المواضع الموجهة إلى الشعب (Sermo ad Populum)، حيث يضم المؤلف أكثر من 500 خطبة ألقاها أوغسطينوس في كنيسة هيبورجيوس وفي قرطاجة حول أصول المسيحية والأخلاق التي تدعو لها والطقوس والممارسات، وبعض الخطب الجدلية ضد الهرطقة واليهود الوثنيين والدوناتيين، وقد كتبت هذه الخطب بفضل كتاب نساخ كانوا يدونونها أثناء إلقاءها في الكنيسة وبعد ذلك جمعت ونقحت ونشرت (Coninck and Wallant and Demeulenaere, 2004: 3-33). ومن جهة أخرى نظر أوغسطينوس لفن الخطابة وتكلم على قواعد الإلقاء وفن الوعظ من خلال مؤلفه الموسوم: التعليم المسيحي (De Doctrina Christiana) في جزئه الرابع، حيث أكد على وجوب تطبيق مبادئ البلاغة في الخطاب وهي: الإيضاح، الإمتاع، الإقناع (Augustine, On Christian: 5).

3. أصناف الخطابة ومضامينها التاريخية في المغرب القديم

كشف التتبع التاريخي لتطور فن الخطابة في بلاد المغرب القديم عن ارتباطه الوثيق بالتحويلات السياسية والثقافية والدينية التي شهدتها المنطقة، حيث أنتجت هذه التغيرات عن تبلور أصناف متميزة من الخطابات، كل صنف من هذه الأصناف يتميز بمضمون مختلف بخصوصية فريدة من حيث الأسلوب والإنتاج والإلقاء، ويمكن حصرها في أربعة أنماط رئيسية:

1.3. الخطابة السياسية

يمكن أن نعرف الخطابة السياسية في بلاد المغرب القديم على أنها مجموعة الخطابات المكتوبة التي ألقاها السياسيون أو صدرت على الهيئات السياسية في المنطقة بهدف التأثير على الجماهير والرأي العام أو إعطاء

مبررات لحوادث وقرارات سياسية أو توجيه الأحداث لصالحهم، أو التعبئة لقضية ما. ومن خلال الأدبيات الخطابية التي وصلتنا بفضل النصوص الأدبية الكلاسيكية تبين أن الخطباء السياسيين كانوا إما ملوكا نوميديين على شاكلة ميكبسا وأذربعل أو شخصيات سياسية قرطاجية مثل هملكو، أما الهيئات السياسية التي كانت منابر لهذه الخطب فتراوحت بين مجلس الشيوخ القرطاجي ومجلس الشيوخ الروماني اللذين كانا مركزين أساسيين لصناعة القرار وبين القصور النوميديّة التي شاركت هي الأخرى بفعالية في توجيه الأحداث السياسية في تلك الفترة.

تنتهي هذه الخطابات السياسية إلى فترة زمنية مفصلية من تاريخ المنطقة، بحيث تتزامن مع الحروب البونية وسقوط قرطاجة وبداية الاحتلال الروماني للمغرب القديم، وكانت جل مضامينها تصب أساسا في ثنايا الأحداث. فخطبة هملكو كانت قبيل الحرب البونية الثانية أي قبل 149 ق م، وخطبة ميكبسا كانت في ثلاثينات القرن الثاني قبل الميلاد كما رجح المؤرخ الجزائري محمد الهادي حارش (حارش، 1988: 56). في حين كانت خطب أذربعل في حوالي 113 ق م، وكلها تواريخ هامة وأحداث مهمة ما يجعل تحليل مضامين هذه الخطابات أمر بالغ الأهمية.

تبدوا أهداف هذه الخطابات متباينة لكنها تصب في غاية واحدة، وهي كسب الرأي العام وتوجيه الأحداث لمصالح هؤلاء الخطباء. فخطبة هملكو في مجلس الشيوخ القرطاجي كان من أجل التعبئة لقضية مصيرية وهي الدفاع عن المدينة، أما خطبة ميكبسا فكان هدفها توجيه الأحداث السياسية لصالحه وصالح أبنائه من أجل استمرارية الحكم والسيادة والدعوة إلى تحالفات عائلية صادقة بتبني ابن أخيه يوغرطة صاحب الشخصية القوية وضمه إلى صفه، أما خطب أذربعل فهدفها يكمن في طلب الحماية من حلفائه الرومان من أجل التصدي لخطر يوغرطة الذي قتل أخاه وحاصر مملكته.

تتصف هذه الخطب بالاعتماد على أنماط حجاجية مليئة بالعواطف، حيث تتكرر فيها كلمات تدل عن التضحية والاستبسال وشحن الهمم، والمفردات التي تعبر عن الأخوة ورباط العائلة والدم إلى جانب عبارات التحالف والولاء والمحابة والاستعطاف. وتجدر الإشارة إلى أن الهدف من وراء الاستعانة بهذا الأسلوب العاطفي هو محاولة التأثير وكسب الرأي العام وإقناع الجهة المخاطبة، من أجل التعبئة وتحقيق الأهداف المنشودة من الخطبة.

من خلال تحليل مضامين هذه الخطب يمكن أن نستنتج العديد من المفاهيم المرتبطة بالسياسة ونظام الحكم سواء في نوميديا أو في قرطاجة، كما يمكننا استخلاص أبعاد الصراعات السياسية في المنطقة، وفهم الذهنيات السياسية لأطراف الصراع في تلك الفترة: قرطاجة، نوميديا، روما. وتتيح لنا هذه الخطب السياسية أن نفهم بشكل جلي السياقات التاريخية للمرحلة بما تحمله من توجهات ومواقف، وما نجده بين أسطر هذه الخطب من أفكار ومعلومات قد يغيب علينا في كثير من النصوص الأدبية الأخرى.

2.3 الخطابة العسكرية

يعتبر ميدان المعركة هو الفضاء الأساسي للخطابة العسكرية، أما رجالها ومن يعتلي منابرهما فهم رجال العسكر والجيش، وهدفها الأساسي هو شحذ همم الجنود وتحفيزهم نفسياً من أجل خوض المعارك والفوز فيها، وفي هذا السياق يمكن أن نأخذ نموذج القائد القرطاجي حنبعل، الذي يصنف في خانة أعظم القادة العسكريين في العالم القديم. فإلى جانب تمتعه بجرأة عسكرية ملفتة ونباهة تكتيكية قل نظيرها، يتميز أيضاً بقدرة بلاغية وبراعة في الإلقاء والتأثير قد يعطينا نظرة دالة عن مميزات الخطابة العسكرية في تلك الفترة.

وفي هذا الصدد يمكن أن نستعين بالدراسة التي قام بها الباحث إريك أدلر (Éric Adler) حول كيفية تناول الكتاب القدامى لخطب الشخصيات المعادية لروما، ومحاولة تبرير دوافعهم ووجهات نظرهم وتحليل عميق لشخصياتهم، ومن الشخصيات التي نالت حظاً من هذه الدراسة هو حنبعل، حيث خصص الكاتب الجزء الثاني من مؤلفه حول هذا القائد، وكيف تناول بوليبيوس وتيتيوس ليفيوس خطبه التي ألقاها في مختلف المعارك التي خاضها، حيث أكد الباحث أن هذه الخطب تحمل الكثير من الدلالات حول العلاقة المعقدة بين قرطاجة وروما، وتوضح من جهة أخرى نضرة الرومان إلى أعدائهم، و التي تحمل صفات الخشية والاحترام (Adler, 2011: 90-95).

كشف الباحث أن خطب حنبعل تحمل العديد من القيم الهامة التي تعكس الصفات القيادية لهذه الشخصية، حيث صورت حنبعل بذلك القائد الذي لديه رؤية واضحة في الميدان وقدرة كبيرة على اتخاذ القرارات وتحمل الأعباء والمسؤوليات، كما أن ثقته بنفسه وقدرته على التواصل قد ألهمت جنوده على التضحية والاستبسال، كما تكررت عبارات الشرف كثيراً في ثنايا خطبه، ليؤكد أن هذه المعارك ليست فقط سجال عسكري وإنما هي قضية وشرف وكرامة له ولشعبه، كما استعمل حنبعل خطبه من أجل شن حرب نفسية على خصومه من أجل بث الخوف في نفوسهم، وفي الوقت ذاته إلى غرس الحماس والثقة في قلوب جيوشه، ومن جهة أخرى أبدى هذا القائد في ثنايا خطبه احتراماً لخصومه الرومان ووصفهم بآئهم جديرون بالاحترام (Adler, 2011: 105-111).

تتصف خطب حنبعل بأنماط بلاغية وحجاجية مختلفة، حيث كانت عباراته في كثير من الأحيان مشحونة ببناء عاطفة، واستعمل مفردات التضحية والشرف والكرامة من أجل شحن جنوده وإثارة دواخلهم، كما استعمل أساليب التكرار والتوكيد خاصة حين يتعلق الأمر بقضايا مصيرية وهامة في المعركة، وغرضه ترسيخ هذه الأفكار والمعتقدات في عقول جنوده. كما كان يقارن بأفكار متناقضة بين مبادئ القرطاجيين وقيمهم القائمة على العدل والحرية وبين قيم الرومان القائمة على الجور والاضطهاد، ليصور الصراع على أنه بين الحق والباطل. وعليهم أن يكونوا بكل حزم في صف الخير ضد شر الرومان. ومن جهة أخرى تحمل خطب حنبعل الكثير من الاستعارات والصور البيانية التي كان يستعملها لتوضيح أفكاره والتأثير على جمهوره وإقناعهم بأفكاره. (Adler, 2011: 135-141)

3.3 الخطابة التثقيفية والترفيهية

برز هذا النوع من الخطابة في بلاد المغرب القديم خلال فترة الاحتلال الروماني، لا سيما في ضل انتشار الهياكل ذات الطابع الترفيهي والثقافي مثل المسارح والملاعب والساحات العامة في مختلف المدن، وقد ساعد هذا المناخ في بروز عدد من الخطباء والمثقفين الذين اشتغلوا على تطوير هذا الصنف من الخطابة، وكان هدفهم هو نشر الثقافة والوعي وكسب الشهرة والمال وسط الجماهير الشغوفة. ومن أشهر الخطباء المحليين في تلك الفترة نذكر أبوليوس المادوري الذي فاقت شهرته حدود زمانه وحدود بلاد المغرب، لذا يعتبر أفضل نموذج يمكن من خلاله التعمق في فهم هذا الصنف من الخطابة.

تعددت المواضيع والمضامين التي وردت في خطب أبوليوس، حيث تتوزع بين القصص والحكايات ذات الحبكة المتقنة والمعاني العميقة على غرار قصة مارسياس (Marsyas) وتحديه لأبولو وقصة الزمار أنتجينيداس (Antajnidias)، إلى جانب حديثه المعمق عن عراقية بعض الحضارات القديمة والمواقع الجغرافية كحضارة الهند وحكمائها وجزيرة ساموس التاريخية. كما استعرض جوانب من حياة بعض الشخصيات التاريخية المهمة من أمثال الإسكندر المقدوني والطبيب إسكليباديس (Esklepades) بالإضافة إلى طاليس وبروتاغوراس (Protaghoras) وشخصيات أخرى. كما أورد في خطبه مجموعة من القصص التي جاءت على لسان الحيوانات وحاول تبيان الدروس والعبر منها، كما في قصة الثعلب والغراب وحديثه عن البيغاء (Apuleius, Florida: 4.6.15.7.19.18.25.13)، بالإضافة إلى العديد من المواضيع الأخرى التي تتحدث عن القيم والأخلاق والعلم والثقافة. وتعتبر هذه القصص والموضوعات مجتمعة على واسع فهم هذا الخطيب، وعمق درايته، وتمتعه برؤية ثقافية واسعة تجمع بين التاريخ والأدب والفلسفة والقيم.

اتضح لنا من خلال قراءة بعض خطب أبوليوس الواردة في كتابه فلوريدا أنه يتمتع بأسلوب بلاغي رفيع يجمع بين تنوع المعارف وروح الدعابة وقوة الحجاج وعمق المعاني، حيث كان كثير الاستدلال والاستشهاد خاصة من تراث بلاد الإغريق وفلاسفتها، كما أنه يحسن الوصف ويدقق التصوير، يقرب المعاني إلى مستمعيه. وتجدر الإشارة أيضا إلى أن أسلوبه الخطابي كان مرنا، يطنب تارة ويختصر تارة أخرى بما تمليه عليه الضرورة البلاغية. كما اشتهر أيضا بأسلوب السخرية التي طالما استعملها هذا الخطيب بغرض التهكم من خصومه (أبوليوس، الأزهير: 14-18).

4.3 الخطابة القضائية

يقصد بهذا الصنف من الخطابة تلك المرافعات التي تكون في المحاكم، بغرض الاحتجاج بحثا عن براءة المتهم أو بغرض إثبات جريمة أو تفنيدها، وأشهر المرافعات في تاريخ المغرب القديم هي مرافعة أبوليوس المادوري في محكمة صبراتة دفاعا عن نفسه من تهمة السحر، حيث أظهرت لنا هذه المرافعة نموذجا آخر من الخطابة يختلف عن باقي الأصناف الأخرى من ناحية الشكل والأسلوب وطريقة الإلقاء.

اختلف أسلوب أبوليوس الخطابي في المرافعة عن أسلوبه في خطبه الواردة في فلوريدا، بحيث أبدى حزمًا وشدة بلاغية وقدرة خاصة في توظيف المنطق والمهارة الخطابية من أجل الدفاع عن نفسه ضد خصومه الجهلة،

حيث كان يفند التهمة تلو الأخرى بحجج منطقية ويفحم خصومه بالدليل العقلي والعلمي، ويبرز مهارته البلاغية والتحليلية، ويتباهى بسعة اطلاعه في القانون وما تمليه الشرائع والأعراف. كما كان يستعرض قدراته في الأدب والفلسفة والتاريخ ومختلف العلوم، إلى جانب أنه كان يجيد فن السخرية من خصومه والتهكم على أفكارهم ونواياهم (أبوليوس، الأزاهير: 13).

لم تكن مرافعة أبوليوس المادوري مجرد خطبة من أجل الدفاع عن نفسه، بل شكّلت وثيقة تاريخية ثرية تطرقت إلى جملة من المضامين المتنوعة. فقد أشارت إلى شخصيات تاريخية بارزة مثل قورش الفارسي وماركوس أنطونيوس وشخصيات أخرى، كما استحضرت المرافعة أساطير دينية مثل أسطورة طوفان ديوكليون، وعدادت أسماء الآلهة الرومانية القديمة مثل فينوس وجوبيتر. وأظهرت المرافعة اطلاع الخطيب على مختلف الأفكار والمعتقدات القديمة كالزرادشتية، ما يعكس اتساع أفقه الديني. إلى جانب ذلك، عرض أبوليوس المادوري أفكاره الفلسفية، لا سيما تأثره بالفيلسوف أفلاطون، حيث كان يستشهد بأفكاره ومواقفه في كل مرة، كما أبان عن دراية في مجال العلوم الطبية من خلال تشخيصه لأمراض كمرض الصرع، وتطرقه إلى علم الأحياء البحرية وأسماء الأسماك وأنواعها (Apulée. Apologie: 24.17.41.12.39.26.25.31.10.11.103.43.45.48.30)، كل هذا يدل على القيمة الثقافية والتاريخية لهذه المرافعة.

5.3 الخطابة الدينية

ظهر هذا النوع من الخطابة خلال الفترة المسيحية وكان هدفها دعوة الناس إلى هذه الديانة ووعظهم للالتزام بمبادئها وأخلاقيها، وكان خطبائها هم أباء الكنيسة الذين حملوا على عاتقهم عبء الدعوة والتنظير. ويختلف الأسلوب البلاغي والحجاجي للخطابة الدينية عن باقي الأصناف الأخرى شكلاً ومضموناً، حيث كان لهم مرجعية مختلفة استندوا لها واستدلوا بها، وهي النصوص الدينية والكتاب المقدس الذي يعتبر عندهم المرجع الإلهي المنزه، تبرر به الأحكام والمواقف، ويستشهد به في الخطب والمواعظ. وقد وضع أوغسطينوس هذه العلاقة في قوله: «الكتاب المقدس خال من الزلل، بل نحن من نخطئ حين لا نعيه بشكل جيد» (Augustin, Lettres: 267).

لم يكتف أباء الكنيسة بهذه المرجعية فقط بل استندوا إلى الحجج العقلية التي استلهموها من الفلسفة الإغريقية، خاصة أثناء مواجهة خصومهم من الهراطقة والوثنيين واليهود. وهناك منهم من استعان بالحجج القانونية دفاعاً عن المسيحيين المضطهدين من السلطة الرومانية، كما فعل ترتليانوس في مؤلفه الخطابي الموسوم بالمرافعة (Tertullien, Apologetique:I). كما اعتمد أباء الكنيسة في خطبهم الأسلوب العاطفي الوجداني لملامسة الجانب الروحي للجماهير، من خلال إثارة مشاعر الخشية من عقاب الإله، والترغيب والرجاء في النعيم المرتقب، وكذلك تحريك العواطف وتحبيبها في الأعمال الصالحة.

تعتبر المضامين التي تحتويها خطب أباء الكنيسة في شمال إفريقيا عن الوضع الديني خلال تلك الفترة، حيث تشرح الصراع الذي كان قائماً بين المسيحيين وخصومهم من الوثنيين واليهود والهراطقة والفرق الأخرى، ومن جهة أخرى تنظر هذه الخطب للمبادئ العقدية الكبرى للديانة المسيحية مثل قضية الثالوث والإيمان بالخلاص وغيرها، كما تعتبر نصوصاً شارحة للكتب المقدس بعهديه القديم والجديد (أوغسطينوس، عظات: 5).

4. الخطابة في المغرب القديم بين الشفاهية والتدوين

يتسم فن الخطابة بخصوصية أدبية لافتة، إذ نستطيع معاينتها ودراستها من جانبين مختلفين: أولاً بكونها فناً شفاهياً يتداول عبر الإلقاء والسماع، وثانياً بوصفها نصاً أدبياً مكتوباً يحمل خصائص لغوية وبلاغية مميزة. وهذه الثنائية تعتبر ميزة فريدة قد تغيب في كثير من الأصناف الأدبية الأخرى.

يعتبر التكوين المبكر على فنون العرض والإلقاء إحدى الأساسيات في إعداد الخطباء في المغرب القديم، إذ تبدأ هذه العملية عادة داخل مقاعد الدراسة حيث يُدرب طلاب الخطابة على إتقان تقنيات الأداء الشفاهي والتمثيل الحركي، وعلى التحكم في نبرة الصوت وحركات الوجه وإظهار المشاعر، ويتم ذلك من خلال تقديم خطب افتراضية في فضاء يحاكي الخطابات الحقيقية، حيث يطلب من المتدربون حفظ بعض الخطب الكلاسيكية لخطباء مشهورين وإعادة استظهارها مع مراعاة الجانب الصوتي والحركي. وقد تكلم القديس أوغسطينوس عن هذا الموضوع في مؤلفه الاعترافات قائلاً: «ونعبر نثراً ما صاغه الشاعر نظماً، وكل من أبدع في الإلقاء والتعبير وأحسن التمثيل والإفصاح عن مشاعر الشخص من الألم والغضب والحب نال الكثير من المدح والتقدير» (أوغسطينوس، الاعترافات: 24).

يعتبر الارتجال في الخطابة من أهم الميزات الذي يجب أن يتصف بها الخطيب في المغرب القديم، حيث يعتبر أحد المعايير التي يقيم بها من قبل جماهيره ونقاده. والخطيب الناجح هو الذي يحسن التفاعل لحظياً مع مستمعيه ويبدى قدرة على التحكم في الفضاء الذي يخطب فيها، ويتكلم بحرية وطلاقة دون نص مكتوب أو إعداد مسبق، ويحسن التعامل مع المواقف المفاجئة، ويظهر ذكاء في الرد على خصومه وأسئلتهم، وهذا يجعله محل تقدير واحترام وسط جماهيره ويكسبه شهرة واسعة في مجاله. وقد تكلم أبوليوس في أحد خطبه على فن الحديث المرتجل بعدما طالبته جماهيره بخطبة مرتجلة، حيث قال في مطلعها: «سألتُموني أن أقدم لكم خطبة مرتجلة فلتصغوا إذن، وسمعتُموني أخطب متأهباً للحديث من قبل، فاسمعوني الآن غير آخذ أهبة له..»، وقارن في الخطبة ذاتها بين النص المكتوب الذي يلقي شفاهة، وبين الكلام الذي يلقي دون تحضير مسبق، وأكد أن التقييم يجب أن يكون أكثر صرامة على الخطب المحضرة مسبقاً وأن يكون أكثر تسامحاً على الخطب المرتجلة، وأشار إلى أن دراسة الفلسفة تجعلك تحدث الناس دون خوف وارتباك. (Apuleius, Florida: 24)

أشارت بعض الدراسات إلى قضية هامة تخص الخطابة في شفها الشفاهي، وهي تفاعلات الجماهير مع الخطيب، والتي تعبر عنها بإشارات أو عبارات تظهر الإعجاب أو الرفض، مثل حالات الهتاف والتصفيق التي تسمى في اللاتينية *أكلاماتيو* (acclamatio)، وهي إشارة تدل على المساندة والإعجاب. ومن جهة أخرى قد تصل هذه التفاعلات حد الجدال أو المجادلة الخطابية، والتي تسمى *ألتركاتيو* (altercatio)، خاصة في الخصومات السياسية أو الدينية (Balbo, 2007: 375-388). وفي نفس الطرح أشار أبوليوس في مواضع عديدة من خطبه إلى علاقته القوية بجماهيره، إلى درجة أنهم جسدوا ارتباطهم به ومحبتهم بإقامة تمثال له في مدينة قرطاجنة يخلد

ذكره. وقد كانت له خطبة ألقها خصيصاً ليشكرهم على هذا التمثال وعلى هذه المحبة (Apuleius, Florida: 16).

انتقل الخطابة إلى مرحلة التدوين لعدة دوافع أساسية. أولها الرغبة في تعميم دائرة انتشاره، إلى فضاءات أكبر، إذ أن الخطب الشفاهية كانت تلقى في المسارح أو الساحات العامة والكنائس أمام جمهور محدود، مما دفع الخطباء والمهتمين بالشأن الثقافي إلى كتابتها حتى تصل إلى جمهور أوسع. فمثلاً خطب أبوليوس كانت تلقى في قرطاجة وتصل إلى جميع المدن والمقاطعات في تلك الفترة، وخطب القديس أوغسطينوس كانت تلقى في هيبورجيوس ويصل صداها إلى كل المسيحيين في شمال إفريقيا، أما الدافع الثاني فيمكن في تطلع الخطباء إلى المجد والشهرة، إذ كانوا يدركون أن التدوين والكتابة هي السبيل الوحيد الذي يخلد أسمائهم في التاريخ متأثرين في ذلك بمن سبقهم من فلاسفة ومفكري بلاد الإغريق. بالإضافة إلى أهداف أخرى أكثر أهمية وهي حفظ الذاكرة الجماعية والتاريخ، إذ شجعت الهيئات السياسية آنذاك على الكتابة والتدوين وقربت الشعراء والخطباء والمؤرخين خاصة الذين يخدمون مشروعاتهم السياسية والثقافية.

أشار أبوليوس المادوري في إحدى خطبه إلى سرعة إنشار عملية كتابة وتدوين الخطب واهتمام المثقفين والنقاد بتحليلها ونقدها، حيث قال: «كل ما أتفوه به يؤخذ بشكل سريع ليسجل ويقرأ، ولا أستطيع بعد ذلك أن أسحب منه حرف واحد أو أعدل فيه أو أجري به أدنى تصحيح لخطأ قد يكون سقط مني سهواً، فعلي إذن أن أكون أكثر حرصاً فيما أتفوه به أمام حضارتكم» (Apuleius, Florida: 9).

اختلفت أساليب كتابة وتدوين الخطب وطرق نقلها، فقد تم توثيق البعض منها من قبل بعض الكتاب الإغريق واللاتين وأسندت إلى شخصيات سياسية وعسكرية، كما هو الحال حين نقل ساليستيوس خطب الملوك النوميدي ميكيبيسا وأذربعل (Salluste, Jugurtha: IX.X.XIV) ومثلما نقل بوليبيوس وتيتيوس ليفيوس خطب القائد القرطاجي حنبعل (Tit Live, Histoire: XXI, 10.11). وتجدر الإشارة أن هؤلاء الكتاب لم يسمعوها هذه الخطب وكانوا يعيدون عنها زمنياً ومكانياً، وإنما وصلت إليهم عبر الرواية الشفوية أو عبر نصوص وسجلات مكتوبة. لذا فمن المؤكد أنهم تصرفوا في لغة هذه الخطب ومضامينها. وهناك من الخطباء من دونوا أعمالهم الخطابية بأنفسهم، مثلما فعل الخطيب أبوليوس المادوري حين دون خطبه في مؤلفين: *أبولوجيا، فلوريديا*، في المقابل توجد خطب أخرى دونها النساخون استناداً إلى ما سمعوه عن الخطيب نفسه، كما هو الحال مع خطب القديس أوغسطينوس التي ألقاها في كنيسة هيبورجيوس، إذا تكلف النساخ بكتابة خطبه ونشرها على المسيحيين بهدف الدعوة والتبليغ لهذا الدين (Coninck and Wallant and Demeulenaere, 2004:33).

5. الآليات المنهجية للتعامل مع الأدبيات الخطابية

تختلف الأدبيات الخطابية المكتوبة عن باقي المصادر والنصوص الأدبية التاريخية الأخرى، فبالإضافة إلى أنها فن جمع بين الشفاهية والتدوين، يتميز هذا النوع من الأدب بميزة فريدة أخرى، كون هذه الخطب آنية ومرتبطة بشخصية محددة وبسياق تاريخي محدد، عكس المصادر التاريخية الأخرى التي تكون في الغالب مفتوحة وغير

مرتبطة بآنية لحظية أو حوار مباشر، كما أن الأساليب البلاغية التي تبنى عليها الخطب تختلف اختلافا كبيرا عن باقي الأدبيات الأخرى من حيث المصطلحات واستعمال العاطفة وكيفية بناء الحجج وطرح المعلومات. لذا فالاعتماد على هذه الخطب المكتوبة كمصدر تاريخي يتطلب آليات منهجية خاصة يجب أن يدركها الباحث، وفي هذا المبحث سنحاول أن نتطرق باختصار إلى أهم هذه الآليات.

ينبغي على الباحث في بداية الأمر أن يتأكد من صحة نسبة الخطبة إلى صاحبها، خصوصا في الحالات التي نقلت فيها هذه الخطب من قبل كتاب إغريق أو لاتين، خاصة وأن هذه النصوص معروفة بذاتها وانحيازها، خصوصا حين يتعلق الأمر بالحضارة الإغريقية أو الرومانية على حساب السكان المحليين، وقد شكك محمد الهادي حارش في خطبة تبني يوغرطة التي وثقها ساليستيوس ونسبها للملك النوميدي ميكيسا، وقدم لها تحليلا عميقا واستخرج العديد من التناقضات تتعلق بالتاريخ الفعلي للتبني، والأغراض الحقيقية للتبني، وكيفية تقسيم المملكة، وحقيقة التبني في حد ذاته (حارش، 1988: 54-57)، مما يدفعنا للتساؤل هل فعلا هذه الخطبة والوصية تنسب لميكيسا أم أنها من تلفيق ساليستيوس؟

يجب على الباحث أيضا أن يدرك أيضا أن الخطبة في الغالب تعبر عن نظرة ذاتية للخطيب، بعيدا عن الموضوعية التاريخية، وقد تحتوي على العديد من المبالغات والمفارقات التي ينبغي الانتباه لها. لذا فقبل تمحيص ما جاء في مضامينها، وجب معرفة الخطيب وتوجهاته ومساعيه ودوافعه للخطابة والتدوين، وهذا يساعده على تمييز ما إذا كان الخطيب يسعى إلى التمجيد أو إلى الانتقاد أو لغرض التوثيق أو لمجرد التعبير والترفيه. كما ينبغي عليه أيضا أن يكون على دراية بمنهجية تحليل الخطاب، من خلال تحديد نوع الخطاب، لغته وتراكيبه والسياق التاريخي الذي أنتج فيه، وكذلك تحليل بنية الخطاب وكيفية استعمال أدوات الإقناع والتأثير. ومن جهة أخرى كيفية تحليل الأفكار ومضامينها (دليو، 2019: 29-38). على الباحث أيضا أن يوظف ملكة النقد أثناء قراءة الخطبة قراءة فاحصة دقيقة، وأن يطبق الآليات المنهجية للتعامل مع المادة التاريخية نقدا وتحليلا وتركيبا، من أجل الاستفادة القصوى من هذه الوثيقة التاريخية، واستعمالها كمصدر واضح لإعادة بناء الذاكرة التاريخية (سعيدوني، 2000: 40-49).

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج مفادها أن موضوع الخطابة والخطباء في بلاد المغرب القديم رغم ما يحمله من قيمة علمية وتاريخية إلا أنه لا يزال مغيبا في مختلف الدراسات الأكاديمية. هذه الأخيرة ركزت على أصناف أخرى من الأدب، في حين بقيت الأدبيات الخطابية يعتريها الغموض، وحتى البحوث التي تناولت هذا الموضوع جعلته محصورا في بلاد الإغريق وروما وأهملت بلاد المغرب، رغم أهمية هذا الفضاء من الناحية الثقافية والأدبية في مختلف الفترات. خاصة وأن المنطقة قدمت لنا مجموعة من الخطباء الملهمين من أمثال حنبعل، وبعض الملوك النوميدي بالإضافة إلى أبوليوس والقديس أوغسطينوس الذين بلغ صيت أدبهم ربوع فضاء بلاد المغرب القديم وامتد إلى خارجه. وتجدر الإشارة إلى أن أغلب الدراسات تناولت هذه الشخصيات في

إطار أدوارهم كسياسيين أو عسكريين أو رجال دين وأدباء وغيبوا أدوارهم كخطباء ومتكلمين مفوهين، وهذا ما يزيد من قيمة هذه الورقة البحثية التي تلمست هذا الجانب من شخصياتهم.

تبين أيضا أن فن الخطابة قد تأثر تأثرا واضحا بالتحويلات السياسية والثقافية التي مرت بها بلاد المغرب القديم، حيث ظهر هذا الفن بداية من الفترة البونية وتداوله رجال الساسة والعسكر من القرطاجيين، كما عرفه ملوك نوميديا وتداولوه على نطاق واسع في فضاءاتهم السياسية. أما مرحلة النضج فقد كانت خلال فترة الاحتلال الروماني أين عرفت الخطابة تطورا ملحوظا وظهر ثلة من الخطباء الأفذاذ كما سبق ذكرهم، وأنتجت العديد من الأدبيات الخطابية الراقية، هذه الأخيرة نافست نظيرتها من بلاد الإغريق والرومان من حيث الجودة اللغوية والقيمة التاريخية.

اتضح أن الأدبيات الخطابية تتميز بخصوصيات فريدة تجعلها مختلفة عن باقي المصادر التاريخية الأخرى، وبإمكان الباحثين في مجال التاريخ الاستفادة منها لتغطية العديد من الفجوات التاريخية. بالإضافة إلى تنوع أصنافها بين الخطابة السياسية والعسكرية والخطابة الترفهية الثقافية والخطابة القضائية والدينية تتنوع مضامينها التاريخية وتختلف بنيتها اللغوية والبلاغية. كل هذه الخصوصية تجعل المؤرخ أمام مصدر ثري وذا قيمة ثابتة تقربه من الحقيقة التاريخية، خاصة وأن هذه الأدبيات آنية وأنتجت في قلب الحدث التاريخي، ومن أنتجها في العادة يكون جزءا من الظاهرة المعنية بالدراسة. كما يتميز هذا الفن بفرادة أدبية أخرى كونه يدرس على أنه مادة شفاهية لها تقنياتها وأساليبها الصوتية والحركية، ويدرس أيضا كونه أدب مكتوب له جمالياته وأسس البلاغية. وفي هذا الصدد وضحت الدراسة سبب التحول من الشفاهية إلى التدوين. بالإضافة إلى سعي الخطباء إلى المجد والشهرة من خلال حفظ خطبهم ومعارفهم من الضياع وحرصهم على أن تصل إلى أكبر عدد من الناس، كان لهم هدف أسمى وهو التأريخ لعصرهم من نظرتهم الخاصة وبطريقتهم الفريدة من نوعها، وهذا الأمر يحسب لهم، ويزيدنا مسؤولية من أجل إظهار أدبهم وإعطائه حقه من الدراسة والتمحيص.

البيبليوغرافيا:

-المصادر

باللغة العربية

1- أبوليوس (1974). /الأزهر، ترجمة محمد فهمي خشيم، ليبيا: منشورات الشركة العامة للنشر

والتوزيع والإعلان .

2- أرسطوطاليس (1953). كتاب الخطابة، ترجمة: إبراهيم سلامة، ط 2، القاهرة: مكتبة الأنجلو

المصرية.

3- أوغسطينوس (1991). /عترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، ط 4، لبنان: دار المشرق.

4- أوغسطينوس (2013). عظات من المزامير، ج 1، ترجمة: سميح جحا، بيروت: دار المشرق.

باللغة الأجنبية

1- APPEIN (1997). *Histoire Romaine*, trad par D. Goukowsky et E. Gaillard, Paris, éd C U F.

2- APULÉE (1924). *Florides*. Texte établi et traduit par P. Vallette., Paris, Les Belles Lettres.

- 3- AUGUSTIN(2002). *Lettres*, texte latin, introduction, traduction et notes par P. Agaësse, A. Solignac, J. Divjak, Paris, Éditions du Cerf, Sources Chrétiennes, n° 130, 267, 341, 363.
- 4- AUGUSTINE (2000). *On Christian Doctrine*, in Four Books, Grand Rapids, London, MI: Christian Classics Ethereal Library.
- 5- CICERO (1942). *De Oratore*, trad by: E. W. Sutton and H. Rackham, London, Harvard University Press.
- 6- POLYBE (1850). *Histoire générale*, trad. Denis Roussel, Paris, éd. Gallimard
- 7- QUINTILIAN (1996). *Institutio Oratorai*, trad by H.E Butler, London, Loeb Classical Library.
- 8- SALLUSTE(1958). *Jugurtha*, trad : Ernout, Paris, Les belles Lettres
- 9- TERTULLIEN(1964). *Apologétique*, introduction, texte critique, traduction et notes par Jean-Claude Fredouille, Paris, Éditions du Cerf (Sources Chrétiennes, n° 1).
- 10-TIT LIVE(1839). *Histoire Romaine*, trad. M. Nicard, Paris, éd les belles Lettres.

-الدراسات (مراجع و مقالات)

باللغة العربية

1. بورونية الشادلي و طاهر محمد(1999). *قرطاجة البونية تاريخ وحضارة*، تونس، مركز النشر الجامعي.
2. حارش محمد الهادي (1988). *سالمستوس وحرب يوغرطة دراسة تحليلية نقدية*، مجلة الدراسات التاريخية، مج 3، رقم 02، 1988، ص-ص 49-66.
3. دانيال روبين (1999). *التراث المسيحي في شمال إفريقيا*، ترجمة: سمير مالك وآخرون، بيروت، دار منهل الحياة.
4. دليو فضيل(2019). *منهجية تحليل الخطاب: تعدد مفهبي وإجرائي*، *المجلة الجزائرية للعلوم الاجتماعية والإنسانية*، عدد 5، ص-ص 29-38.
5. سعيدوني نصر الدين(2000). *أساسيات منهجية التاريخ*، الجزائر، دار القصبة للنشر.

باللغة الأجنبية

1. ADLER, E. (2011). *Valorizing the Barbarians: Enemy Speeches in Roman Historiography*, Austin, University of Texas Press.
2. ANDREA, B. (2007), *Alcuni casi di interazione oratore-pubblico a Roma tra il I secolo a.C. e il I d.C.* In: *Cahiers du Centre Gustave Glotz*, 18, pp. 375-388.
3. BETOLAUD, V. (1901). *œuvres complètes D'Apulée*, t 1, Paris, Garnier frères libraires Éditeurs.
4. CHARLTON, T. (1879). Lewis and Charles. S, *A Latin dictionary*, Oxford, Clarendon Press.
5. DE CONINCK, L. and B. Coppieters't Wallant and R. Demeulenaere (2004). *le "Sermo ad Populum" LXVII de Saint A, Augustiniana*, vol. 54, NO 1/4, pp 3.33
6. HADDAD, C. (1991), *L'enseignement dans les cités Romaine D'Afrique*, mémoire pour le certificat d'aptitude à la recherche en histoire ancienne, Tunis, faculté de la lettre de la science humaine de Tunis.